نصير الدين الطوسى

حامى الثقافة الاسلامية

وتراث العرب الفكرى إبان الغزو المغولى

للأستاذ ضياء الدخيلى

مدرسته ومكتبته فى مراغة ، جهوده الخصبة فى حقول علم الفلك فى مرصده العظيم ، شهادات كبار المستشرقين سيديو الفرنسى ، نلينو الايطالى وليب ومارتون واسمث الأمريكيون .

ما يقوله فيه ابن العبري وابن شاكر وابن كثير ودائرة المعارف الاسلامية وابن الوردى وابن قيم الجوزية .

قال داود اسمث الأمريكى فى كتابه تاريخ الرياضيات ج ١ ص ٢٨٧ . [وفى عصر انحطاط المعرفة فى بلاد الإسلام لا تجد فى القرن الثالث عشر من يستحق أن نخصه بالذكر سوى مؤلف من إيران أنفق سنوات حياته الأخيرة فى بغداد . ذلك هو نصير الدين محمد ابن محمد بن الحسن أبو جعفر وكان من سكان طوس فى خراسان وعاش من عام ١٢٠١ م حتى سنة ١٢٧٤ م وقد نبغ فى علوم مختلفة وألف فى علم المثلثات والفلك والحساب والهندسة وفى تركيب الأسطرلاب وكيفية استعماله] .

فها أنت تجد اسمث يسجل إعجابه بالطوسى وبالظاهرة التى لفتت إليه الأنظار وهى تبريزه فى علوم مختلفة وتأليفه فيها الكتب الخالدة . وقد فات اسمث علوم جليلة أخرى تفوق فيها الطوسى ومنها الفلسفة . فإن كتابه فى شرح إشارات ابن سينا من أنفس الكتب كما شهد له بذلك ذوو الفضل ، وأن دائرة المعارف الإسلامية قد اعترفت له أيضاً بأنه كان علامة فى مواضيع شتى وعلوم متباعدة الأغراض وأنه ألف فيها الروائع النفسية وقالت عنه أنه Polychronicler ومعنى هذه الكلمة صاحب التآليف والتصانيف فى مواد شتى ، وقالت إنه يرجع الفضل فى شهرته وذيوع صيته وراء الدوائر الشيعية لكتبه وتنبيهاته فى العلوم الصحيحة من الطب والطبيعيات (الفيزياء) والرياضيات وعلى الأخص فى علم الفلك والهيئة حيث نال الطوسى أكبر شهرة بأعماله العظيمة فى حقل علم الفلك . وقد كان مديناً فى حصوله على وسائل تنبيهاته الفلكية لشغف خانات المغول بفن التنجيم وعلى الأخص صاحبه هولاكو الذى رغبه فى بناء مرصد كبير فى مراغة جهز بأحسن الأدوات وبعضها استنبط وصنع لأول مرة ووزوده بجماعة كبرى من الراصدين والمراقبين . وكان عمر الطوسى عندما ابتدأ ببناء الرصد ٦٠ عاماً وقد بقى ١٢ سنة أخرى حتى أنجز وأتم عمله فى حساب جداول جديدة للكواكب السيارة قامت على الأرصاد والمشاهدات الشاملة . وقد دون استنتاجاته فى كتابه (الزيج الايلخانى) وتناول المقالة الأولى بحث التواريخ ، والثانية حركات السيارات ، وخصصت المقالتان الثالثة والرابعة للأرصاد التنجيمية . ومن مؤلفاته الأخرى نذكر كتاب (التذكرة الناصرية) وفيها تخطيط وعرض لجميع ما فى حقل علم الفلك وقد علق عليها العلماء المتأخرون وشرحوها عدة شروح الخ (راجع al Tusi فى دائرة المعارف الإسلامية الجزء الرابع ص ٨٩٠ من النسخة الإنجليزية) .

وقال المستشرق الفرنسى العلامة سيديو فى كتابه (تاريخ العرب العام) وكان سيديو أستاذ التاريخ فى كلية سان لويس وعضواً فى مجلس الجمعية الآسيوية وفى اللجنة المركزية للجمعية الجغرافية فى فرنسا وسكرتير كوليج دو فرانس الخ .. قال فى (ص ٤١٠) واختلط تاريخ سلاطين آل سلجوق بأخبار الحروب الصليبية منذ القرن الثانى عشر فظلت العلوم فى الشرق مغطاة طيلة هذه الحروب بغطاء لم يرفعه عنه أحد بعد .

وهذا لا يعنى أن الدراسات الجدية هجرت فقد أبصرنا خان المغول هولاكو يجمع فى بلاطه (عام ١٢٥٩ م) علماء اشتهروا بمعارفهم الرياضية والفلكية وأشهر هؤلاء العلماء هو واضع الزيج الأيلخانى نصير الدين الطوسى . وقد وجد هذا العالم فى نعم مولاه الجديد ما يشجعه فأقام مرصد مراغة وجمع بعناية ما هو منثور فى خراسان وسورية وبغداد والموصل من المخطوطات . ولم يأل جهداً فى إكمال الآلات التى يستعملها فى إرصاده .

ومما صنعه إحداث ثقب في قبة المرصد تنفذ منه أشعة الشمس على وجه تعرف به درجات حركتها اليومية ودقائقها وارتفاعها في مختلف فصول السنة وتعاقب الساعات : وهذا يعني تطبيقاً جديداً للميل ذي الثقب الذي استعان به العرب منذ القرن العاشر . ومن هذا الميل وذات الحلق الكبرى التي تشابه آلة (تيخو براهة)(١) وأرباع الدائرة المتحركة والكرات السماوية والأرضية وأنواع الاسطرلاب تتألف مجموعة آلات مهمة استعان بها نصير الدين الطوسي .

قال (سيد يو) وساعد نصير الدين في أعماله مؤيد الدين العرضي وفخر الدين الخلاطي التفليسي ونجم الدين بن دبيران القزويني وفخر الدين المراغي الوصلي ومحيي الدين المغربي وغيرهم . فأنجز في (١٢) سنة من الأعمال ما يتطلب (٣٠) سنة على حسب الحسابات الأولى وعلمنا أنه اقتبس الزيج الحاكمي لابن يونس مع إدخال تعديلات مفيدة قليلة إليه ففتح دور إقبال كبير على الرصد ولخص على شاه البخاري والنظام Alnaddam (٤) . (كذا في إحياء الكتب العربية — ولعل الصواب أنه النظام) ونجم الدين ابن اليهودي — الزيج الأيلخاني ، وصحح هذا الزيج غياث الدين جمشيد بن مسعود الكاشي ؛ فكان معول جميع المدارس الفلكية حتى ظهور ابن الشاطر الذي عدل في سنة ١٣٦٠ شيئاً مما ارتضاه أسلافه في النتائج .

يقول (سيد يو) إذن أعاد مغول بلاد فارس إلى المدرسة العربية بعض رونقها وترى من ناحية أخرى أن (كوبلاي خان) أخا (هولا كوخان) عند ما أتم فتح الصين نقل إلى مملكة ابن السماء رسائل علماء بغداد والقاهرة .

ونقل (كوشو كينغ) في سنة ١٢٨٠ م أزياج ابن يونس من جمال الدين الفارسي فدرسها دراسة دقيقة وإن عرض (غوبيل)

(١) (تيخو براهه) هو فلكي ألماني أسس مرصد (أورانيبرغ) في ألمانيا سنة ١٥٧٦ م

قال سيديو عدت الحلقة من الآلات الكثيرة التي استعملها (تيخو براهة) أول من اكتشفوا شذوذ أعظم عرض القمر فقد رصد العرب هذا الشذوذ قبله بستمائة سنة وعد تعيين الاختلاف الثالث للقمر أهم ما يفتخر (تيخوبراهة) وهو من حق (أبي الوفاء) أن ينتزع منه هذا الشرف

لآثار (كوشو كينغ) لم يكن ليكشف القناع عن أصلها . وعلى ذكر سيديو ابتكار الطوسي إحداث ثقب في قبة المرصد تنفذ منه أشعة الشمس على وجه تعرف به درجات حركتها اليومية ودقائقها وارتفاعها في مختلف الفصول وتعاقب الساعات الخ — بهذه المناسبة نذكر للقارئ الكريم ما نقله ابن كثير الدمشقي المتوفى سنة ٧٧٤ هـ في الجزء ١٣ من كتابه (البداية والنهاية) عن عظم قبة المرصد .

قال ص ٢٦٧ [إن الخواجا نصير الدين هو الذي كان قد بنى المرصد بمراغة ورتب فيه الحكماء من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والمحدثين والأطباء وغيرهم من أنواع الفضلاء وبنى فيه قبة عظيمة وجعل فيه كتباً كثيرة جداً] .

وكان ابن العبري المتوفى سنة ١٢٨٦ م في مدينة مراغة من أعمال أذربيجان — قد انتقل إليها منذ برهة من الموصل ، روى أخوه برصوما أنه لما فشت التعديات في نواحي نينوى ألح عليه في الانتقال إلى مراغة وكان هناك [في مراغة] مكرماً من خاصة الناس وعامتهم [وإذا عرفنا أن وفاة الطوسي رحمه الله — كانت عام ١٢٧٤ م علمنا أن ابن العبري توفي بعد الطوسي بـ(١٢) سنة فهو إذن قد شاهد الحركة العلمية في مراغة] .

وقد قال ص ٥٠٠ من تاريخه [وفي عام ٦٧٥ هـ توفي الخواجا نصير الدين الطوسي الفيلسوف صاحب الرصد بمدينة مراغة : وهو حكيم عظيم الشأن في جميع فنون الحكمة واجتمع إليه في الرصد جماعة من الفضلاء المهندسين وكان تحت حكمه جميع الأوقاف في جميع البلاد التي تحت حكم المغول وله تصانيف كثيرة : منطقيات والاهيات وأوقليدس ومجسطي وله كتاب أخلاق فارسي في غاية ما يكون من الحسن جمع فيه نصوص أرسطو وأفلاطون في الحكمة العملية ، وكان يقوي آراء المتقدمين ويحل شكوك المتأخرين والمؤاخذات التي أوردوا في مصنفاتهم ثم يذكر أعوانه على الرصد وقد ذكر من محيي الدين المغربي ما نقله له من كيفية خلاصه من ذبح التتار له فقال : كان محيي الدين المغربي مع الملك الناصر فلما أراد المغول أن يقتلوه وجماعته قال محيي الدين لهم : إنني رجل أعرف علم السماء والكواكب والتنجيم ولي كلام أقوله لملك الأرض (يعني هولا كو) يقول ابن العبري — قال محيي الدين

وأرسل صلاح الدين يطلب مدداً جديداً من الأسطول ، فمنى الفرنج بتدمير أسطول لقتاله ومنعه من دخول عكا ، واشتد أسطول صلاح الدين فى قتال أسطول العدو ، وسار الناس على جانب البحر تقوية للأسطول وإيناساً لرجاله ، والتقى العسكران فى البر والأسطول فى البحر ، وجرى بينهما قتال شديد انتهى بانتصار الأسطول المصرى ، وأخذ من العدو الشوانى ، وقتل به ونهب جميع ما فيه ، وظفر من العدو بمركب أيضاً كان واصلاً من قسطنطينية ، ودخل الأسطول المنصور عكا ، وكان قد صحبه مراكب من الساحل فيها ميرة وذخائر ، وطابت قلوب أهل البلد ، وانشرحت صدورهم ؛ فإن الضائقة كانت قد أخذت منهم(١) .

ولما اشتد الأمر بعكا ، وأدار الفرنج مراكبهم حولها حراسة لها من أن يدخلها مراكب المسلمين ، وقويت حاجة من فيها إلى الطعام والميرة ، ركب جماعة من المسلمين فى بطسة ، وتزيوا بزى الفرنج ، حتى حلقوا لحاهم ، ووضعوا الخنازير على سطح البطسة بحيث ترى من بعد ، وعلقوا الصلبان ، واستطاعوا بهذه الحيلة دخول عكا سالمين (٢) . وفى مرة أخرى قدمت إلى المحاصرين من مصر ثلاث بطس مشحونة بالأقوات والميرة وجميع ما يحتاج إليه فى الحصار بحيث يكفيهم ذلك طول الشتاء ، وقد فنى الزاد ولم يبق عندهم ما يطعمون ، فلما دنت من عكا خرج إليها أسطول العدو يقاتلها ، ولكنها استطاعت أن تفلت وتصل سالمة إلى عكا ، وتلقاها أهلها تلقى الأمطار بعد الجدب واستاروا ما فيها (٣) ، وحاول الفرنج وهم يحاصرون عكا حرق الأسطول المصرى بها ، والاستيلاء على برج فى الميناء حتى يحرسوه ، ويحولوا دون دخول المراكب بالميرة إلى المدينة ، فأعدوا بطسة ببرج ملئوها حطباً يشعلونه ناراً ويقذفونه على برج الميناء لقتل ما فيه وأخذه — وبطسة ثانية ملئوها حطباً ووقوداً على أن يدفعوا بها ، حتى تدخل بين البطس الإسلامية ، فيلهبوا الوقود فيحرق البطس الإسلامية ، ويهلك ما فيها من الميرة ، وجعلوا فى بطسة ثالثة مقاتلة تحت قبو ، بحيث يكونون فى مأمن لا يصل إليهم أذى سلاح ، فإذا أرادوا إحراقه دخلوا تحت ذلك القبو فأمنوا ، ولكنهم ما كادوا يشعلون النار ، حتى انعكس الهواء عليهم ، أما البطسة التى كانت معدة لإحراق البرج فإنها احترقت بأسرها ، وهلك من كان فيها من المقاتلة إلا القليل ، وكذلك احترقت البطسة التى كانت معدة لإحراق الأسطول المصرى ووثب المسلمون عليها فأخذوها . وأما ذات القبو فقد ازعج من فيها وخافوا وهموا بالرجوع ، واضطربوا اضطراباً عظيماً ، فانقلبت وهلك جميع من كان بها ، لأنهم كانوا فى قبو لم يستطيعوا الخروج منه (١)

وحاول الأسطول مرة أخرى دخول الميناء يحمل إليها الميرة فتحطم بعضه على صخور الميناء ، لاضطراب البحر ، واشتداد هيجانه . وكان فيه من الميرة مما لو سلم لكفى البلد سنة كاملة(٢) وكان هذا سبباً من أسباب سقوط عكا . وحاول صلاح الدين أن يرسل بطسة كبيرة مشحونة بالآلات والأسلحة والميرة والرجال والأبطال المقاتلة ، حتى تدخل البلد مراغمة للعدو ، وكان عدة رجالها المقاتلة ستمائة وخمسين رجلا ، فأحاط بها العدو من جميع جوانبها واشتدوا فى قتالها ، وجرى القضاء بأن وقف الهواء فقاتلوها قتالاً عنيفاً ، وقتل من العدو عليها خلق كثير ، وأحرقوا للعدو شيئاً كبيراً فيه جند كثير هلكوا جميعاً ، ولكن العدو تكاثر على أهل البطسة ، وكان مقدمهم رجلاً شجاعاً مجرباً يقال له : يعقوب ، من اهل حلب ، فلما رأى أن الدائرة ستدور عليهم صمم هو ومن معه ألا يسلموا من هذه البطسة شيئاً . فأعملوا معاولهم فيها ففتحوها من كل جانب فامتلأت ماء وغرق جميع من فيها وما فيها ، ولم يظفر العدو منها بشىء . وتلهف العدو بعض من كان فيها ، وخلصوه من الغرق وأرسلوه إلى المدينة ليخبرهم بالواقعة (٣) .

وظل الأسطول المصرى طول عهد صلاح الدين قائماً بواجبه يغير على أسطول الفرنج ، ويقتل من رجاله ، ويأسر ما شاء منهم ويستولى على مراكبه (٤) .

(١) الروضتين جـ٢ ص ٢٠٤ (٢) النوادر لابن شداد ص ١١٩
(٣) المرجع السابق ص ١٢٢

(١) المرجع السابق ص ١٢٣
(٢) النوادر لابن شداد ص ١٣٩ (٣) المرجع السابق ص ١٤٨
(٤) الروضتين جـ٢ ص ١٩٤

ولم يقف جهاد الأسطول فى عهده على حرب الفرنج بالبحر الأبيض فقط ، ولكن كانت له وقفات حاسمة فى البحر الأحمر أيضاً ، دافع فيها الفرنج عن الأراضى المقدسة بالحجاز ؛ ذلك أن صاحب الكرك وهو من ألدّ أعداء المسلمين وأشدهم نكاية فيهم ، فكر فى مهاجمة المسلمين فى البحر الأحمر ظناً منه أنهم غير مستعدين فيه ، وتأديباً لحامية أيلة التى كانت تغير عليه ، ولا سبيل له عليها لأنها تقيم بقلعة فى وسط البحر ، فبنى سفناً ، ونقل أخشابها على الجمال إلى الساحل ، وجمعها فى أسرع وقت ، وشحنها بالمحاربين وآلات القتال ، وسارت السفن وقد افترقت فرقتين ، أقامت إحداها على حصن أيلة يحصرونه ويمنعون أهله من ورود الماء ، فأصاب أهله شدة وضيق ، ومضت الثانية ، وهى فرقة فدائية إلى عيذاب ، وأفسد جندها فى السواحل ، ونهبوا ، وأخذوا ما وجدوا من المراكب الإسلامية ومن فيها من التجار ، وفاجئوا الناس على حين غفلة منهم ، فإنهم لم يعهدوا بهذا البحر فرنجياً ولا محارباً[1] ، وأرادت الفرقة أن تقطع طريق الحج ، فقد كانت الغزوة فى شهر شوال سنة ٥٧٨ ، وأن تمضى إلى المدينة المنورة لتنبش قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وتنقل جسده الشريف إلى بلادها ، وتدفنه عندها ، ولا تمكن المسلمين من زيارته إلا بجعل[2] ؛ وسارت الفرقة إلى بلاد الحجاز ، وجاء الخبر إلى مصر وبها الملك العادل أخو صلاح الدين ، فأمر قائد الأسطول وهو الحاجب لؤلؤ أن يتتبع هؤلاء الغزاة ، فانقض على محاصرى أيلة انقضاض العقاب ، وقاتلهم فقتل بعضهم وأسر الباقى ، ومضى نحو إلى شاطئ الحجاز ، فوجدهم قد أوغلوا فى طريق المدينة حتى لم يبق بينهم وبينها إلا مسافة يوم[3] ، فمضى خلفهم على خيل أخذها من الأعراب ، وحاصرهم هناك فى شعب[4] حتى استسلموا ، فقتل أكثرهم ، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها ، عقوبة لمن رام إخافة حرم الله تعالى وحرم رسوله[5] ، وعاد بالباقين إلى مصر ، فكان لدخولهم يوم مشهود ، وأرسل صلاح الدين

(١) الكامل لابن الأثير حـ ١١ ص ٢٢١ .
(٢) خطط المقريزى حـ ٣ ص ١٣٩ .
(٣) المرجع السابق .
(٤) الروضتين حـ ٢ ص ٣٥ .
(٥) الكامل لابن الأثير حـ ١١ ص ٢٢٢ .

إلى أخيه العادل يأمره بقتل أسراه ، ويقول له على لسان القاضى الفاضل : وهؤلاء الأسارى قد ظهروا على عورة الإسلام وكشفوها وتطرقوا بلاد القبلة وتطوفوها ... ولا بد من تطهير الأرض من أرجاسهم ، والهواء من أنفاسهم ، بحيث لا يعود منهم مخبر يدل الكفار على عورات المسلمين . ويظهر أن العادل كان من رأيه الإبقاء عليهم فكتب إلى أخيه بما رآه ، ولكن صلاح الدين لم يغير رأيه فيهم فكتب إلى العادل يقول له : «وليس فى قتل هؤلاء الكفار مراجعة ، ولا للشرع فى إبقائهم فسحة ولا فى استبقاء واحد منهم مصلحة ، ولا فى التغاضى عنهم عند الله عذر مقبول ، ولا حكم الله فى أمثالهم عند أهل العلم بمشكل ولا مجهول ، فليمض العزم فى قتلهم ، ليتناهى أمثالهم عن فعلهم ، وقد كانت عظيمة ما طرق الإسلام بمثلها » ؛ غير أن العادل والسياسة جزء من عناصره لا يسرع إلى قتلهم بل يراجع أخاه كرة أخرى ، فيرد عليه بالقول الفصل : قد تكرر القول فى معنى أسارى بحر الحجاز ، فلا نذر على الأرض من الكافرين ديارا ، ولا نوردهم بعد ماء البحر إلا ناراً فأقلهم إذا بقى جنى الأمر الأصعب ، ومتى لم تعجل الراحة منهم وعدت العاقبة بالأشق الأصعب[1] ، فلم يبق بعد ذلك مجال للمراجعة وقتل الأسرى ، وتولى قتلهم الصوفية والفقهاء وأرباب الديانة[2] .

هذا وكان للأسطول المصرى فى البحر الأحمر الفضل فى فتح بلاد اليمن على يد توران شاه أخى صلاح الدين فهو الذى حمل الأزواد والعدد والآلات إلى تلك الديار[3] .

ورأينا الأسطول المصرى فى عهد العادل يظفر بالفرنج سنة ٥٩٣ ويعود إلى القاهرة غانماً سبعين فارساً بذل أحدهم فى فدائه ثمانين ألف دينار[4] ، ويعود من الغزو فى السنة التالية حاملا معه أربعمائة وخمسين أسيراً[5] .

وكان للأسطول المصرى أثر حاسم فى معركة المنصورة الأولى فى عهد الكامل سنة ٦١٧ ، وكان عدد شوانى المسلمين مائة

(١) الروضتين حـ ٢ ص ٣٦ .
(٢) خطط المقريزى حـ ٣ ص ١٣٩ .
(٣) الروضتين حـ ١ ص ٢١٧ .
(٤) ذيل الروضتين ص ١١
(٥) المرجع السابق ص ١٣

بأن تكون فى ميدانه ، تسوق الظامئين من كؤوس خمرتك الفكرية المتقة فى دنان الإلهام !

أجل يا صديقى ، إن مكانك هنا وليس هناك ... إنك صاحب القطرات ولست شيئاً آخر ، وإن فجرك الذى يشع بأضواء النبوغ ليهدى السالكين إلى نجاح الحق والخير والجمال .

بقى أن أقول لك إن راعى الراعى الماضى لم ينصف راعى الراعى الأديب ، وإن ميزان عدلك قد ظلم ميزان فنك : قطراتك أنت تفتش عن كؤوسها ؟ كلا يا صديقى ، إن كؤوسنا نحن هى التى تفتش عن قطراتك ! مواليد خيالك الخلاق تتنكر لها الحياة ! إنك لتظلم الحياة فى جوهرها الصفى ... إن الحياة لا يمكن أن تبخل على الموهوبين من أمثالك بالذكر الجميل ! أما الذين يبخلون فهم البلهاء الذين حرمهم الله نعمة الذوق والفكر والشعور ، وأظنك توافقنى على أن هذا القطيع من الآدميين لا يستطيع أن يغير شيئاً من وجه الحقيقة ، ولا أن يقيم الميزان لأقدار الناس ، ولا أن يحول بين فيض الإبداع وبين التدفق فى أودية الروح ومسارب العاطفة !

عليك إذن أن تكتب لهؤلاء الذين تلذ لهم الوجبة الفكرية الوضاءة التى تحمل شيئاً جديداً . . وثق أنك إذا سقيت فستظل فى الكرمة تسقى ولن تفرغ الدنان : إن كرمتك يا صديقى لمت جذورها إلى أرض العبقرية بأسباب ، أما دنانك فأنا أبشرك منذ اليوم بكثرة الظامئين المتلهفين إلى أن يشربوا نخب أدبك العالى وفنك الرفيع !

أخلص الشكر على هديتيك الكريمتين ... وإلى اللقاء فى رسائل خاصة ، تنقل إليك وإلىّ ومضات من الفكر ودفقات من الوجدان .

توفيق الحكيم والفن الإنسانى :

منذ أيام دق جرس التليفون فى مكتبى بوزارة المعارف ، وكان المتحدث هو الأستاذ توفيق الحكيم ... لقد تفضل الأستاذ الصديق فاتصل بى ليقول إن كلمات كتبتها عن « شهداء المثل العليا » قد تركت أثرها فى نفسه وصداها فى قلبه ، وكم يود أن يستمع لكثير من هذه النبضات الإنسانية فيما أكتب من تعقيبات ! وقلت للصديق الكريم رداً على جميل تقديره : يبدو أن بين فكرينا شيئاً من توارد الخواطر ، وأن بين قلبينا شيئاً من توارد الخفوق ... لقد كنت على وشك الاتصال بك لأقول لك أيضاً إنى أود أن تخرج لنا روائع أخرى يبلغ فيها الفن الإنسانى ذروته كما بلغها فى « سليمان الحكيم » ! ثم تشعب الحديث من الفن الإنسانى إلى غيره مما عرضنا له من فنون .

والحق أنى لم أكن قد قرأت بعد هذه المسرحية الرائعة حتى تفضل الأستاذ الحكيم فأهداها إلى فى طبعتها الثانية التى ظهرت منذ قريب ... ولقد خرجت بعد قراءتها بحقيقة ملموسة ، تقررت على ضوئها نظرتى إلى معدن الإنسانية فى قلب هذا الفنان . إن من يقرأ « سليمان الحكيم » يلمس أن صاحبها يملك قلباً يهتز اهتزازاً عميقاً أمام جيشان العاطفة ! ولكن أين كانت كل تلك النبضات الشعورية والحركات النفسية ، ولم لم تفرض نفسها على بقية إنتاجه بمثل هذا التدفق الذى عطر كل صفحة من صفحات « سليمان الحكيم » ؟!

هناك جواب واحد لهذا السؤال ، وهو أن الأستاذ الحكيم يغلب عليه الطابع الفكرى فى كثير من قصصه ومسرحياته . إنه يجرى وراء المشكلات النفسية وهو فى ذلك يخضع للجو الذى تسيطر عليه نفسيات أبطاله ، هناك حيث تجد الصراع بين ذهن وذهن لا بين عاطفة وعاطفة ، ومن هنا تختفى الومضات الوجدانية فى تيه من التأملات الذهنية ، ولكنه فى « سليمان الحكيم » شىء آخر ... إن جو المسرحية كان جواً عاطفياً خالصاً هيأ للشعور الإنسانى أن يظهر على حقيقته ، حين تراجع الفكر المجرد متخلياً عن مكانه للروح الرفرفة والقلب الخفاق !

هذا أمر سأعرض له بالتفصيل عند الحديث عن مسرحية « الملك أوديب » فى الأيام المقبلة ... كل ما أرمى إليه من وراء هذه الكلمة هو أن أقرر إنسانية الفن فى شخصية توفيق الحكيم الأدبية ؛ وتلك ناحية كان يخالجنى فيها الشك قبل أن أقرأ « سليمان الحكيم » وقبل أن أستمع لرأى صاحبها فى « شهداء المثل العليا » !

تحية قلبية وأخرى فكرية :

تحت هذا العنوان تحدثت فى عدد مضى من « الرسالة » عما تعانيه الحياة الأدبية فى هذه الأيام من تخمة فى الكتاب وأزمة فى النقاد ، حتى ليتعذر على الناقد أن يتسع وقته لقراءة هذا العدد الضخم من الآثار الأدبية والكتابة عنها ! ثم قلت فى ثنايا كلمتى

إنني لن أكتب عن أي أثر أدبي يهدى إلي إلا إذا لمست فيه نفعاً للأدب وفائدة للقراء ، وحسب كتاب لم يتحقق فيه هذا الشرط أن أقدم إلى صاحبه تحية قلبية ... أما الكتاب الذي يضيف إلى رصيد القارىء ثروة فكرية جديدة فهو جدير بتحية أخرى قلمية !

تلت هذا فكتب إليَّ بعض القراء عاتبين ومعترضين : إن النقد كما يقولون لم يخلق ليقتصر على التنويه بالكتب القيمة والآثار النافعة لأن أصحاب هذه الكتب قد بلغوا من الشهرة والنضج وإقبال القراء ما يجعلهم في غير حاجة إلى التعريف بكتبهم والتحدث عن جهودهم ، وحسبهم أن مكانتهم الأدبية قد بلغت من الصمود والمنعة ما يحول بينها وبين الاهتزاز أمام عواصف النقد وأعاصيره ! أما صغار الكتاب فما أحوجهم إلى العطف والتشجيع ، والتوجيه الذي يسدد خطاهم وينمي ملكاتهم ، ويغذي في نفوسهم نزعة التشوف إلى بلوغ الكمال . فالإعراض عن كتبهم أمر يثبط العزائم ويجني على المواهب ويبعث على الخمول ... ورب شجيرة صغيرة تتعهد بالسقيا وتُخص بالرعاية ، تنمو وتشتد أعوادها وتخرج للناس كل شهي من الثمر وكل مرجو من الفائدة !

إن ردي على هؤلاء العاتبين والمعترضين هو أنني حين عرضت لهذه المشكلة لم أقصر إغفال الكتابة على أديب صغير دون أديب كبير ، ولكنني قصرته على كل كتاب يضيع معه الوقت سواء أكان صاحبه يكتب منذ ربع قرن أم كان يكتب منذ ربع شهر ! أما قولهم بأن صغار الكتاب أحوج إلى التحدث عن آثارهم من كبار الكتاب ؛ لأن هؤلاء الكبار تحميهم مكانتهم الأدبية من زلزلة النقد وهزات الناقدين فلا أوافقهم عليه . إن مقالا واحداً يتسم بالفهم والعمق والأصالة جدير بأن يزلزل سمعة أكبر أديب من أصحاب المكانة المرموقة ، وجدير بأن يبقى كتبه في رفوف المكتبات لا تمتد إليها أيد ولا ترنو عيون ! ولقد أصبحنا اليوم نجتاز مرحلة فكرية بلغت الأوج وأوفت على الغاية ؛ مرحلة ليس فيها أديب كبير ولا أديب صغير إلا في حساب الموازين الناضجة التي تفرق بين المواهب والثقافات ، على ضوء الأعماق وحدها لا على ضوء الأهواء والغايات ! ومع ذلك فلا بأس من الكتابة عن كتب كنت خصصتها بتحية القلب دون تحية القلم ، ولا اعتراض بعد ذلك ولا عتاب !.

رسالة ماجستير في كلية الآداب :

كان ذلك في الأسبوع الماضي إذا لم تخني الذاكرة ، حين توجهت إلى كلية الآداب وحملت نفسي ما لا تطيق واستمعت لمناقشة رسالة عن « العماد الأصفهاني » ... أنا لا أظلم الطالب الذي فاز بالماجستير في الآداب من درجة جيد ، فكم من طلاب فازوا قبله بالدكتوراة من درجة جيد جداً وممتاز ؛ فهذه رسالة عن « الفن ومذاهبه في الشعر العربي » حظي صاحبها بمرتبة الشرف الأولى واستحق شكر الجامعة ، ومع ذلك فقد طبعها لينتفع بها الناس فبقيت لتأنس بها رفوف المكتبات ! وتلك رسالة أخرى في الفلسفة عن « الزمان الوجودي » حظي صاحبها أيضاً بمرتبة الشرف الأولى مع لقب أول فيلسوف مصري ، ومع ذلك فقد طبعها ليرفع بها رأس الفلسفة الوجودية في الشرق فلم يبق لها وجود ... وكم من رسائل أخرى لقيت مثل هذا التقدير وانتهى بها الأمر إلى نفس المصير ...

نخرج من هذا كله بأن لكلية الآداب نظرتها إلى قيم الرسائل العلمية ، وأن للرأي العام الفني نظرته . والفرق بين النظرتين هو الفرق بين القدرة على جمع النصوص من بطون الكتب وترتيبها وتبويبها وإخراجها في رسالة ، وبين القدرة على الغوص في أعماق تلك النصوص ومواجهتها وتمحيصها وإخراجها في نظرية أو مذهب ! إن خمسين صفحة تحفل بومضات الذهن الخلاق خير ألف مرة من مئات الصفحات التي لا تزخر بغير الترديد والتقليد ولكن من يسمع ؟!

لحظات مع إيليا أبي ماضي :

شيء في شعر المهجر يثير إعجابي ، وأوثره بتقديري ، وأشعر نحوه بتجاوب الفكر والعاطفة ... ذلك هو صلة الفن بالحياة ! الحياة في شعر المهجر تنفس عميق ، وهمس رقيق ، ونبع شعور متدفق ، ولعل هذه القصيدة التي صدح بها أبو ماضي في الحفلة التكريمية التي أقيمت له منذ أسابيع في دمشق من خير ماقرأت إشراقة لفظ ، ورحابة أفق ، وأصالة شاعرية !

عنوان القصيدة « عجباً لقومي » . ومطلعها هذه الأبيات :

حيّ الشآم مهنّـــداً وكتابا ... والغـوطة الخضراء والمحرابا
ليست قباباً ما رأيت وإنمـا ... عزم تمرد فاستطال قبابا
فالثم بروحك أرضها تلثم عصو ... راً لهل سكنت حصى وترابا

وإلى العدد المقبل حيث يتشعب فيها الحديث .

أنور المعداوي